المُحاماة... مواد قانونٍ أم أخلاقٍ؟!

تصـدَّر منبر مسـرح جمعية المحامين أسـتاذٌ من كبارِ المحامينَ في دولةِ الكُويت، مُوجِّهاً الحديث لجمهورهِ من طلبةِ كليةِ الحُقوق، الذين يرسـمون في مُخيِّلاتهم صـورةً عظيمةً عن مهنة المحاماة، يأملون بأن يكونوا مسـتقبلاً طوق النجاة لمن غرق في بحر الظلم.

بدأت الندوة التي يدور رحاها حولَ مهنة العظماء، ووهب الطلاب –وكنت منهم- أسـماعهم وأقلامهم لما سـيجود بهِ كبير المهنة عن أسـرارها وأسـس العملِ بها بلهفة البدايات.

إلى أن قال بكلِّ ثقةٍ ومِنعَةٍ: *"إن أتاني من هو مُذنب وأنا أعلم بأنَّه مذنب، فسـأنبري لنجدته والترافع عنه"* مُبرِّراً ذلك: *"فأنا لا أُدافع عنه ولكنَّني أُدافعُ عن القانون والإجراءات"* ... اللهُ أكبر!

صُعقت الأقلام التي كانت تُدوِّن، وتصاغر كبيرُ المهنةِ ضئيلُ الأخلاقِ في عيون الطلبة، فالمقصـد من الكلام لم يكنْ إفادة المذنب من الظروف المُخفَّفة وطلب الرحمة من القاضي، بل كان قلب الحق باطلاً ، أما الأول فلا ريبَ ولا عجب، وأما الآخر فمنقصـةٌ وبعدٌ عن الغاية المنشـودة في قصـر العدل "العدالة" .

وشـتّان ما بين المفهومين، فالحقُّ أَبْلَجُ والبَاطِلُ لَجْلَجٌ، والشَّمسُ لا تُغَطَّى بمنخلْ !

ما سـبق يُمثِّل –للأسـف- واقعاً يعيشـه البعض، ومَن تحدَّثَ في المسـرحِ يُعتبرُ أباً مهنياً لكثيرٍ من حديثي الانتساب للمهنة، وكما قيل:

ويَنشَأُ ناشِئُ الفِتيان منَّا ... على ما كانَ عوَّدَه أبُوهُ

إنَّ الشخص عندما يقبل بذلك مقابل حفنةٍ دنانيرٍ دنيويةٍ، فإنَّه يضع على عاتقه فاتورةً مُضـافةً إلى أجلٍ مُحقَّق الوقوع -كما يقول أهل القانون- أبهظ ثمناً وحينها ((يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ))؟ وعندها لا مفرَّ ولا مهرب.

أما تســـميةُ الدفاع عن المُذنب واســـتخدام أســـاليب الكذب وليِّ عُنُقِ الحقيقة بأنهُ "دفاعٌ عن القانون والإجراءات" فهو لا يُضفِي قبولاً على الفعلِ، ولا يُغيِّرُ حقيقةَ قُبحه، فتسميةُ (الخمرِ) بـــ: (المشروب الروحي) لا تضفي عليه شرعيةً ولا تُحلِّله.

آن الأوان لتفعيل خاصية الأخلاق والتي بدأ نجمها بالأُفول خصوصاً مع طغيان الحياة المادية، وتجرُّؤ البعض على تصدر الشاشات الإخبارية بزف بُشرى براءة تاجر مخدرات أو مختلس مال عام بسبب دفاعه المسخ، والذي يخلو في الغالب من فنٍّ أو إبداعٍ، فهي قائمة دفوعٍ مُعلبة ومُعدَّة مُســـبقاً أرفقها في صحيفة الدفاع.. بئسَ المحامي، فقيرُ كفاءةٍ وأخلاق.

أخيراً، فإنَّني:

أرى تحتَ الرَّمادِ وَميضَ جَمْرٍ ... وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرامُ

فإنَّ النارَ بالعُودَينِ تُذكى ... وإنَّ الحَرْبَ مَبدأُها كَلامُ

فإنْ لَمْ يُطْفِها عُقَلاءُ قَومِي ... يَكُونُ وقودُها جُثَثٌ وهامُ!

إي واللهِ إنها لحربٌ، وعواقِبُها تجار مخدراتٍ ولصـــوص أحرارٌ، ومُجتمعٌ يَنهار.

أَلا هل بَلَّغتْ ؟ اللهُمَّ فاشهدْ .

كتبه : محمد وليد الشهاب

10 يونيو 2020م